

## أثر الفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين ووقعها على الأنظمة المنهزمة

### The impact of the Islamic conquests during the Umayyad era and their impact on the defeated regimes

الباحث: حسن عنقوري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة محمد الأول- وجدة-المغرب.

البريد الإلكتروني: [hasanankouri@gmail.com](mailto:hasanankouri@gmail.com)

الملخص:

شهد التاريخ الإسلامي ثورة حضارية كبرى لم يعهد لها التاريخ مثيلاً، ودليل ذلك قيام فتوحات إسلامية كان لها وقع عظيم على الحضارات الأخرى مما أفضى إلى تشكل تراث حضاري زاخر، وقد اخترت موضوع هذه الورقة للوقوف على حقبة تاريخية من العصر الأموي، ومن خلال التطرق لمجموعة من قضاياها، ومن ذلك تعامل المسلمين مع الأنظمة المنهزمة في إفريقيا وآسيا إبان العصر الأموي، رغم أن هذا النوع الراقي من التعامل كان سائداً منذ الفتوحات الإسلامية على عهد الخلافة الراشدة، ثم إن الباعث على النظر إزاء هذا التعامل فترة العهد الأموي، هو معرفة المظاهر والآثار والنتائج المترتبة عن تلك التصرفات الإنسانية... من حيث عدم احترام معتقدات هذه الأنظمة وحرمانهم من ممارسة الأنشطة الاقتصادية التي كانت حِكراً على العرب، كما تمّ استعباد شعوبهم وبيعهم في أسواق الدولة الأموية، وهذا ما يفسر حصول الدولة الأموية على غنائم وثروات كثيرة نتيجة فتوحاتهم، بخلاف المسلمين في آسيا حيث كان تعاملهم فيه كثير من الاحترام والتقيّد بأحكام الشريعة الإسلامية، لكن يبقى القول واضحاً أنّ تعامل المسلمين خلال فتوحات العصر الأموي لم يتقيد المسلمين فيه بالشريعة الإسلامية، مقارنة مع فتوحات الخلافة الراشدة، حيث كان هدف المسلمين هو نشر الإسلام وجعله فوق أي اعتبار، فقد كان

تعاملهم اتجاه الأنظمة المنهزمة وفق الشريعة الإسلامية. بالرغم من تلك التجاوزات الذي ميّزت العصر الأموي، الشيء الذي يفسر دخول البربر في الإسلام، والشعوب الآسيوية كذلك... وفي هذا السياق، يمكن طرح إشكاليتين مركزيتين مفادهما: إلى أي حدّ يمكن أن تكون الدولة الأموية دولة فاتحة؟ وهل تستحق فعلا أن توصف بالدولة الإنسانية لرحمتها بالأقليات فترة حكمها؟

يتبع هذين الأشكالان المنهجين التاريخي والتحليلي، لذلك يقتضي الأمر جمع طبيعة المادة العلمية التي تقف على تلك الأحداث التاريخية على اعتبار معالجة قضية هذا الموضوع.

### Summary

The Islamic history witnessed a major civilization revolution that has never been seen before, and the evidence for that is the rise of Islamic conquests that had a great impact on other civilizations, which led to the formation of a rich cultural heritage, I chose the subject of this paper to find out about a historical period of the Umayyad era, and by addressing a group of its issues, including the Muslims' dealings with the defeated regimes in Africa and Asia during the Umayyad era, Although this sophisticated type of interaction was prevalent since the Islamic conquests during the era of the Rightly Guided Caliphate, then the inspiration for this interaction during the Umayyad era is to know the manifestations, effects and consequences of those human actions..,In terms of lack of respect for the beliefs of these regimes and their denial of carrying out economic activities that were the preserve of Arabs, and their peoples were also enslaved. And selling them in the markets of the Umayyad state, and this explains why the Umayyad state obtained many spoils and wealth as a result of their conquests. Unlike Muslims in Asia, where their dealings

were a lot of respect and adherence to the provisions of Islamic law, but the saying remains clear that the Muslims' treatment during the conquests of the Umayyad era did not abide by Muslims in it with Islamic law, compared to the conquests of the Rashidun Caliphate, where the goal of Muslims was to spread Islam and make it above any Consideration, as they dealt with the defeated regimes according to Islamic law. Despite those excesses that characterized the Umayyad era, The thing that explains the entry of the Berbers into Islam, and the Asian peoples as well.. In this context, two central problems can be posed: To what extent could the Umayyad state be a conqueror? Does it really deserve to be described as the humanitarian state for its mercy on minorities during its period of rule? These two forms follow the historical and analytical method. Therefore, it is necessary to collect the nature of the scientific material that relates to these historical events, given that the issue of this topic is addressed.

#### مقدمة:

شهد التاريخ الاسلامي ثورة حضارية كبرى لم يعهد لها التاريخ مثيلا، ودليل ذلك قيام فتوحات إسلامية كان لها وقع عظيم على الحضارات الأخرى مما أفضى إلى تشكّل تراث زاخر مادي وغير مادي يجمع بين الإسلامي وغيره، ما جعل كل الأصناف البشرية تدخل تحته، بل وتجد ضالتها فيه... كما شكلت هذه الحقبات مراحل، فتحققت فيها أمجاد وبطولات عجزت أمم بأكملها عن تحقيقه في مئات السنين.

وقد اخترت موضوع هذه الورقة للوقوف على حقبة تاريخية معينة وهي العصر الأموي، ومن خلال التطرق لمجموعة من قضاياها التاريخية المتعلقة بهذه الحقبة الإسلامية، ومن ذلك تعامل المسلمين مع الشعوب المهزومة في إفريقيا وآسيا إبان العصر الأموي، رغم أنّ هذا النوع الراقى من التعامل كان سائدا منذ الفتوحات الإسلامية على

عهد الخلافة الراشدة واستمر إلى ما بعد الدولة الأموية، ثم إن الباعثَ أيضا على النظرِ في هذا التعامل اتجاه الشعوب المهزومة في إفريقيا وآسيا فترة العهد الأموي، هو معرفة المظاهر والآثار والنتائج المترتبة عن ذلك التعامل وعن تلك التصرفات الإنسانية...وفي هذا السياق، يمكن طرح إشكاليتين مركزيتين مفادهما: إلى أي حدٍ يمكن أن تكون الدولة الأموية دولة فاتحة؟ وهل تستحق فعلا أن توصف بالدولة الإنسانية لرحمتها بالأقليات فترة حكمها؟

هذان الإشكالاتان وغيرهما كثير مما تستدعي طبيعة البحث الإجابة عنها، يمكن مقاربتها بالاستناد إلى المنجني التاريخي والتحليلي، والتوسل بهذين المنهجين يقتضي طبيعة المادة التاريخية الصارمة، والتحليل المنطقي لتلك الأحداث التي تضي على تلك المادة نوعا من الاستدلال المنطقي، ويرد على الشبهات التي قد تطرأ على مسار ذلك التاريخ السامي بالتزييف والبخس والنقد...، بحيث إن المتأمل في تاريخ هذه الفتوحات، يجده قد تميز بالجهاد في سبيل الله من أجل غاية واحدة وهي نشر العدل في الأرض، وتبليغ دعوة الحق إلى سائر الخلق...، وهذا البذل من نصرة الحق هو ما يفسر ريادتها في ذلك الحقبة، واتساع رقعتها من حدود الصين إلى حدود فرنسا غربا. ورغم هذا الاتساع الجغرافي الذي كان له دور ريادي في بناء الحضارة، إلا أنها لم تسلم من تشويه لتاريخها الحافل، الذي يعتبره كثير ممن غاب عنهم الإنصاف أنها دولة استعمار واحتلال، وأن قيادتها قاموا بتجاوزات غير أخلاقية اتجاه الشعوب المهزومة، وكانت مقاصدهم-على حدّ زعم المخالفين- هو الاغتنام والسعي نحو السيطرة البشعة والاستغلال للثروات التي كانت تزخر بها إفريقيا وآسيا، وهذا الادعاء الباطل يسقط أمام الطرح التاريخي المنصف الذي ينص على أن الدولة الأموية عملت على نشر الإسلام والدعوة إليه، وهذا ما يفسر دخول إفريقيا وآسيا إلى الإسلام، ولذلك نعتها مخالفين بأنها فتح الإسلامي على المعمور. وتجدر الإشارة هنا إلى اختلاف مذاهب الدارسين والباحثين في كيفية تعامل هؤلاء الفاتحين الأمويين مع الشعوب المهزومة، حيث ذهب طائفة منهم إلى نفي الفتح الإسلامي الحقيقي الذي كان هدفه العدل، ومنهم من رأى أن الأمر غير ذلك على اعتبار أنها مجرد معارك

الهدف منها هو الاغتنام والاكتمال والسطو والسيطرة... وبعد البحث في حقيقة أحداث المرحلة وجمع عدد هائل من المعطيات التاريخية التي تنجلي حول هذه القضية، سوف أحاول الإجابة عنه في هذا الشأن، ولن تكون هاته الورقة مجرد عرض تاريخي سردي إبان عهد الدولة الأموية وامتدادها، وما حصل من وقائع وأحداث، وإنما هو تسليط الضوء لدراسة هذا الجانب من تاريخ الدولة الأموية الذي تميز بانتشار العلوم والفنون وباستتباب الأمن وإقرار الحريات العامة.. ولتحديد الرؤية التاريخية في كيفية تعامل المسلمين الفاتحين مع الشعوب المهزومة في عهد الدولة الأموية، تأتي هذه الورقة المقتضية على النحو الآتي:

○ أهم معارك الدولة الأموية في إفريقيا وآسيا

▪ أهم المعارك في إفريقيا

ومن ذلك حملة معاوية بن حديج، حيث توقفت الفتوحات الإسلامية في إفريقيا عدة سنوات بسبب فتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم الصراع بين علي ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ولم تتجدد الفتوحات مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمور لمعاوية سنة 41هـ عام الجماعة، وبعد أن تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة الأموية قرر إعادة فتح إفريقيا ومواصلة حركة الفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب: "فأرسل معاوية بن حديج عام 45هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقيا"<sup>1</sup>، وتقدم بن حديج بجيوشه واتخذ من موضع يسمى - قمونية- معسكرا ثانيا له، حيث أخذ يوجه السرايا إلى مراكز البيزنطيين بإفريقيا، ومنها تلك السرية التي قادها عبد الله بن الزبير إلى المدن الساحلية واستولى فيها على -قابس، بنزرت، سوسة-. وفي هذا الميناء الأخير كان الأسطول البيزنطي: "قد بعث جيشا بقيادة -

<sup>1</sup> - الدولة الأموية عوامل ازدهار وتداعيات الانهيار، الصلابي علي، دار المعرفة، 2008م، ط2، ج1،

بُطريق- يقال له: نفقور في ثلاثين ألف مقاتل.<sup>1</sup> فقام بن الزبير بمهاجمتهم بمن معه فتراجع الروم مهزومين إلى سفنهم.<sup>2</sup> ثم وجّه معاوية بن حديج سرية أخرى: "بقيادة عبد المالك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة-جلولاء- فحاصرها وقتل من أهلها عددا كثيرا حتى فتحها عنوة."<sup>3</sup> فقتل المقاتلين وسبى الذرية وأخذ جميع ما كان في المدينة وحمل ذلك كله إلى معاوية بن حديج.<sup>4</sup> واتجه معاوية بن حديج إلى صقلية في: "200 مركب فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا، ثم انصرفوا إلى إفريقيا بغنائم كثيرة، ورقيق، وأصنام منظومة بالجوهر."<sup>5</sup> ثم بعث سرية بقيادة-رويفع بن ثابت الأنصاري: "فاتجهت إلى جزيرة جربة فأتخن فيها سبيا وقتلا، ومن آثار كثرة السبايا وطأ الجند لهن دون قيد شرعي، وسلب الغنيمة دون جمعها ودفع خمسها وهو ما أدى - رويغ- أن يذكر المسلمين بأحكام وطئ السبايا."<sup>6</sup> وقد تمكن المسلمون إثر هذه الحملات من الدخول إلى معظم المناطق بالقوة، كما بلغوا الذروة من الغنائم والسبايا.

أما معركة تلمسان، فبعد أن ولى معاوية بن أبي سفيان مَسْلَمَة بن مخلد ولاية مصر نضير الحسن في تثبيت أركان الدولة الأموية، عزل عقبة بن نافع عن إفريقيا وولى عليها أبا المهاجر دينار، فدخلها سنة 55هـ، ونزل القيروان ووجه جيشا افتتح به جزيرة شريك، بعد دخوله المغرب الأوسط اتخذ من مدينة-بوسكرة- مركزا له وقاعدة لعمله الكبير، ومنها انطلق صوب بقية الربوع عابرا التخوم الجنوبية من الأوراس نحو-ميلة- وتمكن من اقتحامها بعد دفاع البيزنطيين عنها، ثم اتجه بعد ذلك غربا حتى وصل جبال - الونشريس:- "ترامت الأخبار إلى-أبي المهاجر- أن جمعا من الروم والبربر يستعد لحربه،

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 361

<sup>2</sup> - البيان المغرب، ابن عذارى المراكشي، تحقيق: بشار عواد معروف، 2013م، ط 1، ج 1، ص 40

<sup>3</sup> - الصلابي علي، الدولة الأموية..، المرجع السابق، ص 361

<sup>4</sup> - ابن عذارى، المرجع السابق، ص 40-41

<sup>5</sup> - قادة الفتح الإسلامي بالمغرب العربي، محمود شيت خطاب، 1984م، ط 2، ج 1، ص 80

<sup>6</sup> - ابن عذارى المراكشي، المرجع السابق، ص 41

فقرر المسير إليهم وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، كان زعيم القبيلة كسيلة.<sup>1</sup> الذي ذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم فتحمس البربر، فاجتمع لكسيلة جيش من البربر والروم.<sup>2</sup> فعسكر نواحي تلمسان بعد أن أبرم اتفاقا وحلفا مع بقايا البيزنطيين الروم لقتال المسلمين، فأسرع إليه -أبو المهاجر- في جيش من العرب والأمازيغ المسلمين، فعسكر بجيشه حول تلمسان، ويقول د.الصلابي- مفسرا أحداث المعركة: "فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاء كبيرا، وأدركوا خطورتها وأنّ لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة."<sup>3</sup>؛ وفي المعركة أسر -كسيلة- وحمله إلى أبي المهاجر دينار: "فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك، وطمع في إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته."<sup>4</sup>؛ فأسلم كسيلة فدعا قومه إلى الدين الحنيف، فأمن البربر بعد أن تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين، بعد انتصار المسلمين في معركة تلمسان فقد تمكن -أبو المهاجر- من السيطرة على المغرب الأوسط بالإضافة لنجاح سياسته في دعوة البربر إلى الإسلام بعد أن دخل الكثير منهم في الإسلام. ويلييه حملة عقبة بن نافع الواقعة عامي: 62-63هـ، فلما توفي مولى -أبو المهاجر دينار مسلمة بن مخلد الأنصاري- قام الخليفة يزيد بعزل أبو المهاجر وأعاد عقبة بن نافع على ولاية إفريقيا سنة 62هـ، فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد عن ألف ميل من القيروان إلى ساحل المحيط الأطلسي، وصل عقبة بن نافع القيروان قرر استئناف حركة الفتوحات. يقول بن الأثير: "فقد سار عقبة في عسكر عظيم حتى دخل مدينة -باغاية- وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم،

<sup>1</sup> - الصلابي علي الدولة الأموية...، المرجع السابق، ص370

<sup>2</sup> - الصلابي علي الدولة الأموية...، المرجع السابق، ص371

<sup>3</sup> - الصلابي علي الدولة الأموية...، المرجع السابق، ، ص371

<sup>4</sup> - الصلابي علي، الدولة الأموية...، المرجع السابق، ص371

فقاتلوه قتالا شديدا وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة.<sup>1</sup> فسار عقبة بعدها إلى بلاد -الزاب- فقصدها مدينتها العظمى وأسمها أربة، فامتنع بها من كان هناك من الروم والنصارى فاقتتل المسلمون من المدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.<sup>2</sup>؛ ثم توجه بعد ذلك إلى -تاهرت- فلما علم الروم خبره استعانوا بالبربر فنصرهم: "فاجتمعوا في جمع كثير واقتتلوا قتالا شديدا واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ثم إن الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.<sup>3</sup> فسار عقبة إلى طنجة فلقية بطريق من الروم اسمه -يليان- فسأله عن البربر فقال: "هم بسوس الأدنى وهم كثيرون وهم كفار، فسار عقبة إليهم نحو سوس الأدنى وهو مغرب طنجة فانتهى إلى أوائل البربر فلقوه في جمع كثير فقتل فيهم قتلا ذريعا وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه.<sup>4</sup> ثم سار بعد ذلك حتى وصل سوس الأقصى وقد اجتمع له البربر في عدد لا يحصى: "فلقبهم وقاتلهم وهزمهم وقتل المسلمين فيهم حتى ملوا وغنموا منهم وسبوا سبيا كثير.<sup>5</sup>" حيث بلغ بعدها حتى وصل -ماليان- ورأى البحر المحيط فقال قولته الشهيرة: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك." وقد تمكن المسلمون بقيادة عقبة بن نافع من تحقيق غايتهم بفتح شمال إفريقيا حيث بسط نفوذ الأمويين على إفريقيا بعد هذه الحملة، بالإضافة إلى حصول المسلمين على غنائم وسبي كثير.. وتأتي معركة -تهوذة- حيث ترجع المصادر التاريخية أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة بن نافع عند تهوذة سنة 63هـ، إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم -

<sup>1</sup> - الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، تحقيق: أبو فداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ط 1، ج 3، ص 451

<sup>2</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 451، بتصرف

<sup>3</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 451

<sup>4</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 451

<sup>5</sup> - الصلابي علي، الدولة الأموية... المرجع السابق، ص 377

كسيلة- بصفة خاصة، حيث كان صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبا المهاجر قد قربه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه بعد معركة تلمسان، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، يقول ابن الأثير: "فلما ولي عقبة عرفه أبا المهاجر محل كسيلة وأمره بحفظه فلم يقبل واستخف به، وأتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاحين فقال كسيلة: هؤلاء فتياي وغلماي يكفونني المؤونة، فشمته وأمره بسلخها ففعل.<sup>1</sup> فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة فنصحها لكن عقبة لم يسمع منه، فتهاون عقبة اتجاه -كسيلة- فقام كسيلة بغدر المسلمين، بعد أن حقق عقبة غايته من حركة الفتح الإسلامي بالشمال الإفريقي، فلما وصل طنجة أدن لمن معه من الصحابة أن يتفرقوا ويقدموا القيروان على شكل أفواج، حيث (بقي عقبة هو على رأس الفوج الأخير ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين).<sup>2</sup> فلما علم الروم بانفراد عقبة بن نافع بهذا العدد القليل من الجيش انتهزوا الفرصة لمحاولة القضاء عليه، فتآمروا عليه مع كسيلة، فجمعوا له وأصحابه جمًا -أي عددا كبيرا كثيرا- لا قبيل لهم به: "إذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفا فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن.<sup>3</sup> فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أعتنم الشهادة فلم يفعل وقال وأنا أيضا أريد الشهادة فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقتلواهم فقتل المسلمون جميعهم، ولم يفلت منهم أحد.<sup>4</sup> فانهمزم المسلمون، ولذلك شكّل انهزام المسلمين في معركة تهوذة سنة 63هـ أمام البربر مصيبة على المسلمين حيث استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار وصحبه، بالإضافة لخروج المسلمين من منطقة إفريقية لعقد من الزمن بعد أن تمكن كسيلة من الاستيلاء عليها بعد انتصاره

<sup>1</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 452

<sup>2</sup> - الصلابي علي، الدولة الأموية...، المرجع السابق، ص 379

<sup>3</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 452

<sup>4</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 452

على المسلمين، حيث بسط نفوذه على منطقة شمال إفريقيا؛ وتأتي معركة ممس سنة الواقعة عام 69هـ، بعد استشهاد عقبة بن نافع في كمين من قبل الروم وارتداد كسيلة بعد إسلامه، حيث سارع عبد الملك بن مروان إلى تعيين زهير بن قيس البلوي واليا على إفريقيا، وزوده بجيش كبير لقمع البربر وتخليص المسلمين في تونس، واستعادة القيروان التي سقطت بأيدي البربر. وإثر هذا الوقع التاريخي يتفق المؤرخون على أنّ زهير بن قيس خليفة عقبة على القيروان أراد بعد كارثة -تهوذة- أن يقاتل كسيلة ومن بقي معه من البربر، يقول بن الأثير: "لما ولي عبد الملك بن مروان ذكر عنده من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإفاد الجيوش إلى إفريقيا لاستنقاذهم، فكتب إلى زهير بولاية إفريقيا وجعله جيشا كثيرا فسار سنة 69هـ إلى إفريقيا".<sup>1</sup> حيث تقدم زهير بجيشه في تونس: "فبلغ خبره إلى -كسيلة- فجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشرف أصحابه ورحل إلى ممس..<sup>2</sup> وبلغ ذلك إلى زهير بن قيس فلم يدخل القيروان، بل أقام ثلاثة أيام حتى أراح واستراح، استعدادا للمعركة الكبرى وفي اليوم الرابع التقى الجمعان في مكان يسمى - ممس- بالقرب من القيروان في معركة لم تعرف إفريقيا مثيلا لها من قبل، يقول بن الأثير عن أحداث المعركة: "فالتقى العسكران واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة، فلم يزالوا كذلك أكثر النهار نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه ب -ممس- وتبع المسلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم فأكثرُوا".<sup>3</sup>، كما انتهت المعركة بمقتل -كسيلة- وانتصار المسلمين بقيادة زهير بن قيس البلوي الذي رجع بعدها إلى القيروان بعد تحقيق هدف الدولة الأموية بالقضاء على كسيلة وإرجاع نفوذ المسلمين بإفريقيا، لذلك فقد حقق المسلمون مبتغاهم في فتح المغرب بعد معركة -ممس- حيث قاموا بالقضاء على مقاومة خصومهم البيزنطيين والبربر خاصة من بربر البرانس مما أتى

<sup>1</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 452

<sup>2</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 452 بتصرف

<sup>3</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 452

للمسلمين من تثبيت دعائم الإسلام بإفريقيا. أما معركة الكاهنة، بعد أن عُدر بالقائد المسلم عقبة بن نافع في معركة تهوذة سنة 64هـ، تضرعت حركة الفتح الإسلامي بالشمال الإفريقي، ثم ازدادت الأمور تعقيدا بعد استشهاد القائد زهير بن قيس البلوي الذي تولى إفريقيا بعد استشهاد عقبة بن نافع، فأرسل الخليفة عبد الملك بن مروان قائدا جديدا للمنطقة ذا كفاءة عالية هو حسان بن النعمان، يقول ابن الأثير في هذا الأمر فقد: "قام عبد الملك بن مروان بتجهيز جيش كثير واستعمل عليهم وعلى إفريقيا حسان بن النعمان الغساني وسيرهم إليها سنة 74هـ فلم يدخل إفريقيا قط جيش مثله."<sup>1</sup>؛ حيث استهل حسان بن النعمان ولايته بفتح مدينة قرطاجنة أعظم مدن إفريقيا وقتها وكانت تحت سيطرة الروم، ثم سأل -حسان- بعدها عن أقوى ملوك إفريقيا ليسير إليه، فبهزمه أو يسلم، وقيل له الكاهنة هي: "امرأة تملك البربر وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة وكانت بربرية وهي بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد مقتل كسيلة."<sup>2</sup>؛ كما أسرع إليها حسان بن النعمان ليقاتلها: "فلما قاربها هدمت حصن -باغاية- ظننا منها أنه يريد الحصون فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها فالتقوا على نهر نيني- واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وانهزم حسان."<sup>3</sup>؛ وذلك في سنة 77هـ، ثم عاد حسان بن النعمان بجيشه بعد هذه الهزيمة الشديدة إلى القيروان ثم عسكر حسان خارج القيروان في منطقة عرفت بعد ذلك بقصور حسان وظل مقيما بها خمس سنوات كاملة، عملا بأمر الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمره بالإقامة مكانه ولا يتحرك حتى تأتيه الأوامر، وظل هذه الفترة يستعد لقتال الكاهنة مرة أخرى وأخذ في بثّ العيون لتأتيه بأخبار الكاهنة وأخذ يطلب من الخليفة الإمدادات، ممّا ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات قامت خلالها بعمل في غاية الغباء والحماقة إذ أمرت رجالها بتخريب المزارع والمراعي والبساتين

<sup>1</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 125

<sup>2</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 126

<sup>3</sup> - ابن عذاري، المرجع السابق، ص 63

بدعوى أنّ المسلمين ما غزو بلادهم إلا من أجل هذه الثروات وكان لهذا العمل الأحمق ردّ فعل قوي لصالح المسلمين إذ خرجت الكثير من قبائل البربر عن طاعتها، واتصلوا بالمسلمين وطلبوا منهم المساعدة على التخلص من حكم الكاهنة الحمقاء، وبعد أن انتهى الخليفة عبد الملك بن مروان من القضاء على الفتن الداخلية، سيّر عبد الملك إلى حسان الجنود والأموال وأمره بالمسير إلى إفريقيا وقتل الكاهنة.<sup>1</sup> فلما تكاملت استعدادات المسلمين انطلق حسان بن النعمان بالجيوش الإسلامية إلى جبل الأوراس معقل الكاهنة، فلما بلغ الكاهنة قدومه فأحضرت ولديها، وخالد بن يزيد وقالت لهم إنني مقتولة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانا فسار إليه وبقوا معه.<sup>2</sup> وسار حسان نحوها في سنة 82هـ فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن أنه الفناء ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قتلا ذريعا وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقتلت.<sup>3</sup> وتّمّ الحدث قرب بئر يسي بئر الكاهنة، وبمقتلها فقد انتصر المسلمون على البربر فخلّصت أرض إفريقيا للمسلمين، وفتحت الطريق أمامهم للوصول إلى المحيط الأطلسي والأندلس، ودخل البربر في اعتناق الإسلام أفواجا وشاركوا في فتح باقي الشمال الإفريقي، وأيضا في فتح الأندلس.

#### ▪ أهم معارك الدولة الأموية في آسيا

ومن ذلك غزو -بيكند- بحيث لما تولى قتيبة بن مسلم ولاية خراسان وقيادة الفتح في الشرق، تمكن من فتح عدة مناطق بدئاً من إيران حتى الصين، وفي عام 87هـ أثناء سلسلة فتوحاته غزا مدينة -بيكند- يقول بن جرير الطبري: "إنّ قتيبة لما صلح نيزك، أقام إلى وقت الغزو وثم غزا في تلك السنة 87هـ فقطع النهر فسار إلى -بيكند- وهي أدنى

<sup>1</sup> - ابن عذاري، المرجع السابق، ص 63

<sup>2</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 126

<sup>3</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص 126

مدائن بخارى إلى النهر.<sup>1</sup> ولما وصل عسكر أمام المدينة وأغلق أهل -بيكند- أبوابهم عليهم، وكانوا يعلمون بمسير قتيبة لهم من قبل فاستنصر العدو ببقية الأتراك والممالك التي حولهم فاتوا لنصرتهم واجتمعوا كلهم على قتيبة حتى أصبح عددهم أضعاف جيش المسلمين، وحاصروا جيش المسلمين وعسكروا في طريق العبور، فتقاتلوا واستمر قتالهم مدة شهرين كاملين يتقاتلون كل يوم، ولم يستطع جيش الأتراك هزم جيش قتيبة أو القضاء عليه.<sup>2</sup>

وكان معسكرهم على طريق جيش المسلمين وكانوا محاصرين منهم، بهذا لم يستطع قتيبة أن يرسل أي رسالة إلى المسلمين والحجاج بن عمرو الثقفي طيلة الشهرين بذلك لم يكن الحجاج والمسلمون يعلمون أحوال قتيبة وجيشه طيلة ذلك الوقت، فأشفق الحجاج على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم، في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتلون كل يوم، فكانت بين الناس قتال بالرمح ثم تراجعوا والتحقوا وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانهزموا يريدون المدينة وأتبعهم المسلمين فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاءوا واعتصم من داخل المدينة وهم قليل فوضع قتيبة الفعلة في أهلهم ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم.<sup>3</sup> فصالحهم قتيبة على الجزية والخضوع له وللدولة الإسلامية الأموية، ووضع عليهم أميرا مسلما وكتيبة وجنود ورحل، وما إن رحل عنهم حتى نقضوا العهد وانقلبوا وقتلوا الأمير ومن معه، فعاد لهم قتيبة فقاتلهم لمدة شهر فطلبوا منه الصلح فرفض حتى اقتحم عليهم المدينة وهزمهم وفتحها، وقتل من كان في المدينة وغنم غنائم كثيرة ورجع قتيبة إلى مرو.<sup>4</sup> وبعد فتح قتيبة لمدينة -بيكند- قام

<sup>1</sup> - تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: روائع التراث

العربي، 1967م، ط2، ج6، ص430

<sup>2</sup> - ابن الأثير، نفس المرجع، ص244

<sup>3</sup> - ابن جرير الطبري، المصدر السابق، ص340

<sup>4</sup> - ابن جرير الطبري، المصدر السابق، ص431

بقتل كل الجنود الذين اختبئوا فيها وسبى كثيرا منها، كما تحصل المسلمون على غنائم كثيرة جدا لم يغنم المسلمون مثلها في خراسان، بالإضافة إلى أسلحة وآلات حرب استخدمها قتيبة لتقوية جيشه. ثم بعد ذلك يأتي غزو بخارى، في سنة 89هـ حيث اختار قتيبة بن مسلم بخارى لغزوها بعد أن أخضع في السنة الماضية المناطق المحيطة بها فكتب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يخبره ويصف له المدينة وإقليمها وصفا دقيقا، فأرسل له الحجاج توصياته بالتحركات العسكرية القادمة إليه، يقول الطبري في هذا الأمر: استأنف قتيبة في عام 89هـ فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجاج، فلقبه في طريقه جمع من أهل -كش- ونسف بهم ومضى إلى بخارى فتصدى له ملكها وردان خداه فلم يستطع الاستيلاء عليها فرجع إلى -مرو- وكتب إلى الحجاج يخبره فطلب منه الحجاج أن يصورها له فبعث إليها بصورها، فنصحها وأمدده وعرفه الموضوع الذي يأتيها منه وأمره بالمسير إليها.<sup>1</sup> كما تقدم قتيبة بجيشه إلى -بخارى- سنة 90هـ فتمكن من تطويق وضرب حصار عليها، فأرسل وردان خداه إلى الصغدو والترك ومن حولهم يطلب منهم المساعدة، فنصروه وأتوه في جموع غفيرة.<sup>2</sup> وتشجعت حامية بخارى لما رأت الإمدادات، فخرجوا إلى المسلمين ليقاتلوهم، فدار أعنف قتال شهدته المعركة بين الجيش وحلفاء بخارى، فحاول قتيبة القضاء على هذا التحالف بهجمات متتالية، فقرر أن يقدم الفرقة الأزديية في محاولة لخرق صفوف الأعداء، فقاتلت الأزديية قتالا ضاريا بهجمات متتالية إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها.<sup>3</sup> فأوعز لها قتيبة بمواصلة القتال ريثما يدفع بكتائب الخيالة الإسلامية، التي قامت بحركة إحاطة الترك من الجانبين فأثرت الإحاطة الراكبة على الموقف وتراجع الحلفاء إلى مرتفع عبر نهر زرفشان، ثم أمر قتيبة إلى الفرقة التميمية بالتقدم وعبور النهر وتأسيس رأس جسر وإزاحة المقاومة الصغدية على التلّ، فتقدم قائد الفرقة قيس التميمي وتمكن من دفع العدو

<sup>1</sup> - ابن جرير الطبري، المصدر السابق، ص 431

<sup>2</sup> - ابن جرير الطبري، المصدر السابق، ص 432

<sup>3</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 254

إلى ما وراء النهر، ثم أمر وكيع بنصب جسر من خشب على الزرفشان.<sup>1</sup> فعبروا الفرسان المسلمين النهر ودارت بينهم وبين الصغيدو والتُّرك معركة عنيفة صمد فيها الصغيدون والأتراك، فطلب -وكيع بن حسان- من قائد فرقة الخيالة -هريم بن أبي طلحة- القيام بحركة إحاطة للموقع بغية إشغال العدو وجلب الانتباه لحركة الإحاطة والتطويق، فدار قتال عنيف على المرتفع تخلله مهاجمة وكيع للترك وهم غافلون فانهزموا وتراجعوا بغير انتظام، لكي يضرب قتيبة ضربته الحاسمة، فقام بمطاردة شديدة للعدو.<sup>2</sup>؛ وجرح في المعركة خاقان وابنه، ولم يلبث ملك أن طلب الصلح إلا أن قتيبة رفض وأعد كميناً لكي يهجم على الباب فور فتحه وأخذ المدينة عنوة، وبعد أن فتحت حامية بخارى الباب هاجمها الفرسان المسلمون وتغلبوا عليها فدخل المسلمون المدينة فاتحين.<sup>3</sup>؛ وتمكن المسلمون من الانتصار على الصغيدون والأتراك بعد معارك شرسة واستولى قتيبة على بخارى وكتب بالفتح إلى الحجاج، وقد استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات، وبعد فتحه -قتيبة- بخارى أعاد -طغشاد بن خاتون- على عرشها فأسلم، أما -وردان خداه- فقد هرب إلى -تركستان- ومات هناك بعد فترة. هذا بالإضافة إلى غزو سمرقند، أي بعد فرض -قتيبة بن مسلم- السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون، قام بتتويج عمله بغزو مدينة -سمرقند- وهي أعظم مدائن ما وراء النهر والصغد، وكان السبب أن -طرخون- ملكها كان قد نقض الصلح الذي أبرمه معه قتيبة سنة 90هـ، وامتنع عن دفع ما كان عليه فقرر قتيبة أن يضع حداً لهذا العبث.<sup>4</sup>؛ فقام قتيبة بجمع جنوده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح وبِعزمه على فتح سمرقند بالقوة، فجهز أخاه عبد الرحمان بن مسلم في عشرين ألف مقاتل وأمره بالسير أمامه ثم

<sup>1</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 254 بتصرف.

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 254 بتصرف.

<sup>3</sup> - فتوح البلدان، البلاذري أبو الحسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط 2، 1983م، ص 410

<sup>4</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية..، ص 43

تبعه هو في أهل خوارزم وأهل بخارى وضرب عليها الحصار.<sup>1</sup> فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حُوصرت وخافوا أن يُطيل الحصار قاموا بالاستنجاد بمن حولهم من الملوك فكتبوا إلى ملوك الشاش وفرغانة يستغيثونهم، ويحرضونهم على المسلمين وقالوا لهم: إنَّ العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم.<sup>2</sup> فقام هؤلاء الملوك بالاستجابة لنداء أهل سمرقند فأوفدوهم بجيش كله من الأشراف والأولاد فاخترأوا أحد من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من بناء المرازية والأساورة والأبطال وأمرهم أن يفاجئوا قتيبة في معسكره، وهو مشغول بحصار سمرقند.<sup>3</sup> لكن الأخبار وصلت إلى قتيبة، فأرسل لهم فرقة من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم، فبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم.<sup>4</sup> فلما رأى الصغد ما حلَّ بهؤلاء انكسروا ثم تابع قتيبة حصار سمرقند، فنصب المنجنيق على المدينة واستطلع أحداث -ثلمة- فيها وصاح قتيبة صيحة الأسد: حتى متى يا سمرقند يعيش فيك الشيطان، أما والله لئن أصبحت لأحولنَّ من أهل أقصى غاية، فلما أصبح أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم، واشتد القتال وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة وماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا.<sup>5</sup> فلما رأى أهل سمرقند أنه لا سبيل لهم، وأنَّ مدينتهم على وشك أن تُؤخذ بالقوة من قبل المسلمين، أرسلوا وفداً إلى قتيبة يطلبون الصلح فقالوا له: انصرفْ عنا اليوم حتى نصالحك غداً، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة.<sup>6</sup> ثم صالحهم قتيبة ودخل مدينة سمرقند سنة 93هـ، كما صالحهم قتيبة على دفع الجزية للمسلمين كل عام، وأن يخلوا المدينة من المقاتلين، وأن

<sup>1</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية..، ص43

<sup>2</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية..، ص43

<sup>3</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص274

<sup>4</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية..، ص44

<sup>5</sup> - ابن الأثير، المصدر السابق، ص275

<sup>6</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية..، ص44

يبني فيه مسجدا فيدخل ويصلي فيه، بالإضافة إلى أن تهدم بيوت النيران وتزال الأضرحة، كان هدف قتيبة من هذا العمل هو تطهير مدينة سمرقند من عبادة الأوثان، وهدى أهلها بالإسلام، وعندما دخل قتيبة والمسلمين مدينة سمرقند بنى فيها مسجدا وصلى فيه، وجمع المسلمين الأضرحة وحرقها وأذاب ما كان فيها من ذهب فجمعه فكان الذهب أكثر من خمسين ألف مثقال غنمه المسلمون. ثم يأتي غزو الشاش وفرغانة، بعد عودة قتيبة بن مسلم إلى مرو فورَ انتهائه من فتح سمرقند، وجد أنه من المستحيل استتباب الأمن والنظام ما لم يقضي نهائيا على جيوش الدويلات الثلاث الباقية شرق الصغد وهي الشاش وعاصمتها أخصيكت، وكانت خطته تقضي بالتقدم على جميع هذه الدويلات في آن واحد، بالإضافة إلى تجميد القوات العسكرية لكل دويلة داخل حدودها، وبعد حصول المسلمين على قسط من الراحة بقيادة قتيبة سار في سنة 94هـ في موعد غزو في الصيف ومعه عشرون ألفا من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم، فوجه قسما منهم إلى الشاش، وتفرغه هو بالقسم الآخر إلى فرغانة.<sup>1</sup> وفي مدينة خجندة اصطدم قتيبة بالعدو، حيث دار بينهم وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجندة، حيث نجح قتيبة في فتح المدينة، ثم سار قتيبة إلى مدينة كاشان وفرض عليها الحصار، وهناك أتاه الجيش الإسلامي الذي نجح في فتح الشاش وانضم إليه، ورغم ذلك لم يستطع قتيبة من فتح المدينة، ذلك بسبب أن الجيش الإسلامي لقي مقاومة شرسة من الأتراك في هذه البلاد، فكتب قتيبة إلى الحجاج يطالب المدد، فأرسل إليه جيشا من العراق، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه إليه من السند مددا أيضا فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند.<sup>2</sup> هكذا أصبح جيش قتيبة أكبر عددا وأكثر قوة، هذا الأمر يدل على قوة المقاومة التي واجهها جيش المسلمين من قبل الأتراك في هذه المنطقة، كما يدل على رغبة المسلمين في فتح هذه الأقاليم، وتمكن المسلمين من

<sup>1</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية...، ص44

<sup>2</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق-الدولة الأموية...، ص44

تحقيق هدفهم سنة 94هـ من فتح أقاليم الشاش وفرغانة مما سيسهل الأمر أمام جيش المسلمين بقيادة قتيبة من غزو الصين وتحقيق هدف المسلمين بإيصال الإسلام إلى حدود سور الصين وغزوه، بعد إتمام المسلمين فتح الشاش وفرغانة، حول قتيبة أنظاره ناحية الصين، وشجعه على ذلك الوضع السياسي المضطرب في تركستان الشرقية، إذ كان الأمراء الأويغور متفرقين وفي تناحر مستمر فيما بينهم، فوجد بذلك قتيبة فرصة للتقدم إلى بلادهم وفتح ما تيسر منها. ويبدو أنّ قتيبة أراد تحقيق إنجاز إسلامي على حدود الصين، بالإضافة إلى أنه أراد ردع الأمراء الأويغور من التدخل في المناطق المفتوحة حديثا، ولاسيما أنهم كانوا يساندوا كثيرا حكام فرغانة في معاركهم، وضع قتيبة مدينة كاشغر نصب عينيه أولا، ويقول بن الأثير: في سنة 96هـ غزا قتيبة كاشغر فسار وحمل مع الناس عبالاتهم لبعضهم بسمرقند فلما عبرَ النهر استعمل رجلا على مغبرِ النهر ليمنع من يرجع بجواز منه ومضى إلى فرغانة، وأرسل إلى شعب عصام من سهل الطريق إلى كاشغر-هي أدنى مدائن الصين- وبعث جيشا مع كثير بن فلان إلى كاشغر، فغنم وسبى سبيا فختم أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين.<sup>1</sup> لذلك فقد تحصّل المسلمون على غنائم وسبيا كثير بعد فتح مدينة كاشغر سنة 96هـ، بعدها توجه المسلمون لفتح المناطق التي وراءها، حتى بدا الاصطدام بين جيش المسلمين والصينيين وشيكا، فكتب إمبراطور الصين إلى قتيبة يطالب منه التفاوض، فوافق قتيبة على ذلك، وأرسل قتيبة إلى الإمبراطور الصيني وفدا برئاسة هبيرة بن مسرح الكلابي، فلما قيل هبيرة إمبراطور الصين عرض عليه الجزية أو الإسلام أو الحرب، لكن إمبراطور الصين ثار وهدد بأنه سيقضي على المسلمين، فردّ عليه هبيرة أن المسلمين على استعداد للحرب، وأن قتيبة حلف ألا يغادر الصين حتى يفتحها ويختم ملوكها ويعطي الجزية.<sup>2</sup> بحيث لما: "سمع إمبراطور الصين بقوة قتيبة وجيش المسلمين بالإضافة إلى أنه قدرّ الخسائر

<sup>1</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 289

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 290

التي تنجّم عن الحرب، عرض أن يخرج قتيبة من يمينه، بأن يرسل له حفنة من تراب الصين فيطأه وأربع غلمان من بناء الملوك فيتجنهم، وجزية عبارة عن ذهب وحرير وملابس صينية فاخرة.<sup>1</sup> لذلك قبل قتيبة العرض الصيني فأخذ الجزية بالإضافة إلى بعض الهدايا النفيسة من الحرير والذهب. ثم يأتي غزو بلاد السند في عام 90هـ حيث استولى قراصنة السند من الديبل بعلم ملكهم داهر على سفينة إسلامية بكل ما فيها من الهدايا والبحارة والنساء المسلمات، حيث وقعوا تحت أسر القراصنة. فحاول الحجاج بن يوسف الثقفي استرداد النساء والبحارة بالطرق السلمية، لكن داهر اعتذر بأنه لا سلطان لديه على القراصنة، فغضب الحجاج فأعدّ جيشاً تلو الآخر لفتح بلاد السند الأولى بقيادة عبد الله بن نهبان فاستشهد، ثم أرسل الحجاج بديل بن طهفة البجلي ففاز بالشهادة دون أن يصل إلى أمر حاسم، فاستشاط الحجاج غضباً بعد أن رأى قوته تتساقط فاقسم على فتح هذه البلاد، وأن ينشر الإسلام فيها، فقرر القيام بحملة منظمة، ووافق الوليد بن عبد الملك، بعد أن تعهد له الحجاج أن يرد إلى خزينة الدولة ضعف ما ينفقه على فتح بلاد السند، كما وقع اختيار الحجاج على محمد بن القاسم الثقفي ليقود الجيش لفتح بلاد السند، يقول ابن الأثير: كان الحجاج بن يوسف استعمله على ذلك الثغر وسيّر معه ستة آلاف مقاتل، وجّهه بكل ما يحتاج إليه حتى المسال والإبر والخيوط، فسار محمد إلى مكران فأقام بها أياماً ثم أتى قنزبور ففتحها، ثم سار إلى أرمائيل ففتحها.<sup>2</sup> ثم تقدم لفتح الديبل، وجعل عتاده وأزواده في سفن أرسلها بالبحر من أرمائيل، وحاصر الديبل ونصب عليها المنجنيق، وفتحها بعد قتال عنيف دام ثلاثة أيام، وهدم كل تمثال أو معبد لبوذا، ثم حولها إلى مدينة إسلامية، وأزال منها كل آثار البوذية، وبنى بها المساجد وأسكنها أربعة آلاف مسلم.<sup>3</sup> فكان لفتح المسلمين مدينة الديبل أثر كبير على أهل السند، فسارعوا يطلبون الصلح، فصالحهم محمد بن القاسم

<sup>1</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 290

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 250

<sup>3</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 250-251، بتصريف.

ورفق بهم، ثم سار إلى مدينة القيرون فصالح أهلها، وجعل لا يمر بعد بمدينة إلا فتحها صلحا أو غنوة، حتى عبر نهر مهران فأتاه أهل سريديس فصالحوه ووظف عليهم الخراج، وسار عنهم إلى سهبان ففتحها، ثم سار إلى نهر مهران فنزل في وسطه وبلغ خبره داهر فاستعد لمحاربتة وبعث جيشا إلى سدوستان، فطلب أهلها الأمان والصلح فأتمهم ووظف عليهم الخراج، ثم عبر محمد مهران مما يلي بلاد، راسل الملك على جسر عقدة وداهر مستخف به، فلقية محمد والمسلمون وهو على فيلٍ وحوله الفيئة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله، ترجل داهر فقتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا.<sup>1</sup> وبمقتل داهر استسلمت بقية بلاد السند وأصبحت جزءا من بلاد الإسلام، فقد مضى محمد بن القاسم يستكمل فتحه، فاستولى على مدن وحصون كثيرة إلى أن اجتاز نهر بياس واقتحم مدينة الملتان في إقليم البنجاب، في جيش عدده خمسون ألفا من الجنود والفرسان، عشرين ألفا فقط من الجيش الأصلي الفاتح، ومعظمهم ممن انضم إلى المسلمين بعد نجاحهم في المعارك السابقة، فاستولى على المدينة بعد قتال عنيف، وقضى على كل التماثيل والمعابد البوذية هناك، وغنم مغنم كثيرة من الذهب والفضة، ولهذا سميت الملتان بيت أو ثغر الذهب.<sup>2</sup> وبعد فتح بلاد السند نظر الحجاج إلى النفقات التي استخدمها لفتح بلاد السند فكانت ستين ألف ألف درهم، ونظر في الذي حمل فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف فقال: ربحتنا ستين ألف وأدركنا ثأرنا ورأس داهر.<sup>3</sup> فقد تمكن محمد بن القاسم الثقفي من فتح بلاد السند بأكملها ليظهر بلاد السند من الوثنية إلى نور الإسلام، بالإضافة إلى أن المسلمين حصلوا على غنائم وسبيا كثير جراء هذا الفتح، فدخلت بلاد السند تحت نفوذ الدولة الإسلامية.

<sup>1</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 250-251

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 251-252 بتصرف.

<sup>3</sup> - ابن الأثير الجزري، المصدر السابق، ص 252

○ تعامل المسلمين في عهد الدولة الأموية مع الأنظمة المهزومة في إفريقيا

بعد أن تعرضنا إلى معرفة أهم المعارك والفتوحات التي واكبتها أحداث وسمات وخصائص، يمكن طرح إشكال رئيس وهو: أين يتجلى التعامل الإنساني الذي قام به المسلمون اتجاه الشعوب والأنظمة بعد التحكم في زمام أمورهم؟ وفي هذا السياق نتطرق لأهم التصرفات وهي كما يلي:

▪ نوعية التعامل من حيث الجانب الديني

لقد كان المحرك الأساسي للفتوحات الإسلامية في إفريقيا هو الدعوة إلى الإسلام ونشره في نفوس البربر، ولذا عمل الجيش الإسلامي بقياداته الفاتحة عندما وصلت إلى أي مدينة أو غزوة يُخَيَّرُون البربر بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب، حيث عمل قادة الفتح بالقرآن والسنة والاجتهاد السياسي المقاصدي في تدبير سياسة الدولة الإسلامية، هذا ما دفع المسلمين لاحترام معتقدات البربر وحرمتهم في اختيار الدين بعد الفتح الإسلامي لإفريقيا، حيث عمل قادة الفتح والولاة الأمويين على منح البربر حق الاختيار بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية للبقاء في دينهم، لأن البربر قبل الدخول الإسلامي كانوا خاضعين للبيزنطيين، وكانوا إما وثنيين أو مسيحيين، لذا جاء المسلمون إلى إفريقيا لإخراج البربر من عبادة الأوثان إلى نور الإسلام وتوحيد الله، وتحريرهم من الاضطهاد الذي كان مفروضا عليهم من قبل البيزنطيين الذين جاءوا إلى إفريقيا لاستغلال ثرواتهم بعكس المسلمين الذين جاؤوا لدعوة ونشر الإسلام وإخراج البربر من العبودية والاضطهاد الذي كانوا يعانون منه ، ولذلك فقد اختلف قادة الفتح الأمويين والولاة في سياسة الدعوة إلى الإسلام ونشره في صفوف البربر حيث اعتمد البعض على السيف والقوة، بينما البعض اعتمد على سياسة الحكمة، وهذا الأمر دفع بتأخر المسلمين في فتح المسلمين لشمال إفريقيا، ذلك بسبب مقاومة البربر لأنهم رأوا في ذلك عدم احترام لعقائدهم الدينية وحرمتهم في اختيار الدين.

كما نلاحظ في فترة عقبة بن نافع اعتماده على القوة والشدة اتجاه البربر حيث يقول بن عذارى: ووصل بن نافع إلى إفريقيا فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها.<sup>1</sup> ثم يقول أيضا: "فهمهم وقتلهم تقتيلا".<sup>2</sup> هذا ما يفسر اعتماد عقبة على سياسة القوة والسيف في نشر الإسلام وإدخال البربر في الإسلام، وهذا ما سيجعل الناس يدخلون إلى الدين مكرهين، وبالتالي فإنّ الأشياء التي تفرض على الإنسان بالقوة لا يتقبلها بشكل سليم، عكس الأشياء التي لا تفرض بالقوة، فإنّ الناس يأخذونها عن طيب خاطر.<sup>3</sup> ؛ ويظهر هذا الدخول بالقوة في الإسلام في كتاب الصلابي : ويظهر أنّ أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعا مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة.<sup>4</sup> وهذا الذي ذهب إليه العديد من المؤرخين الغربيين إلى أنّ عقبة بن نافع استعمل السيف والقوة ضد البربر لإجبارهم على الدخول في الإسلام، ممّا دفعهم للدخول فيه وهم مُكرهون، بالإضافة إلى ذلك فإنهم قالوا بأنّ عقبة لم يحترم حرية العقائد الدينية للبربر، لكن عقبة رغم سياسته التي استعملها، إلا أنّ هدفه كان نشر الإسلام، هذا ما يتبين من بنائه للمساجد في إفريقيا وترك فقهاء مسلمين في قبائل مفتوحة لتعليم البربر دين الإسلام.

وفي المقابل نلاحظ سياسة أبو المهاجر دينار الذي استعمل سياسة اللين والحكمة في تعامله مع البربر، حيث احترم العقائد الدينية وحرية البربر، لأنّ هدفه كان هو تقريب البربر منه من أجل الدخول في الإسلام. وهذه سياسة نلاحظها جليا في تعامل أبو المهاجر مع كسيلة زعيم البربر بعد انتصار المسلمين على البربر في معركة تلمسان حيث أسر كسيلة وحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك، وطمع في إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته وأنه دين التوحيد الخالص، والعدل

<sup>1</sup> - ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق-البيان المغرب، ص19، بتصرف.

<sup>2</sup> - ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق-البيان المغرب، ص24

<sup>3</sup> - تاريخ إفريقية والمغرب، الرقيق القيرواني، تحقيق: عبد الله العلي الزيدان، دار الغرب الإسلامي،

ط1، 1990م، ص14-15، بتصرف

<sup>4</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق- الدولة الأموية...، ص378

والمساواة والأخوة.<sup>1</sup> فأسلم كسيلة وتبعه الكثير من البربر بعد أن تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين. وهي نفس السياسة التي اعتمدها حسان بن النعمان في فترة قيادته للفتوحات حيث نهج سياسة الحكمة واللين وتقريب البربر منه لدعوتهم إلى الإسلام، وظهر نجاح سياسته في استعانة أهل قابس وقفصة به من الكاهنة التي قامت بتخريب إفريقيا، وبجسّ معاملة لولدي الكاهنة فحسُن إسلامهم، وهو الأمر أدى إلى إسلام عدد كبير من البربر، يقول الأستاذ محمد الهادي الحسني: "ولست أدري لماذا يُستغرب من مقاومة البربر للمسلمين وقد قاومهم قومهم واضطهدوهم، وهجروا القرآن وكفروا به، ونهوا عنه ونأوا ولكن هؤلاء البربر سُرعان ما عرفوا هدف المسلمين الشريف، وفقهوا الإسلام الحنيف فأشربوا في قلوبهم حبّه وتحولوا إلى جنوده يقاتلون في سبيل الله وينشرون دينه باللسان والسنان. رغم اختلاف قادة الفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية في الدعوة إلى الإسلام إلا أن هدفهم الرئيس كان نشر الإسلام في إفريقيا، وإخراج البربر من عبادة الأوثان مع احترام عقائدهم الدينية، بخلاف ما ذهبت إليه الدراسات الآن إلى أن المسلمين جاءوا إلى إفريقيا للحصول على الغنائم وثروات البربر، ولكن صدق المسلمين في الدعوة إلى الإسلام، دفع عددا كبيرا من البربر إلى الانضمام إلى جنود المسلمين في فتح الأندلس.

#### ▪ التصرفات الأموية من حيث الجانب الاقتصادي

رأى العديد من الكتاب المستشرقين والكتاب العرب المعاصرين بأنّ العامل الاقتصادي كان المحرك الأقوى للفتوحات عند العرب المسلمين، بل والمحدد في كل وهلة، حيث كان همّهم الحصول على الغنائم والثروات والأراضي الصالحة للزراعة التي كانت تزخر بها إفريقيا، في نظير ذلك أنّ الدولة الأموية انتهجت اتجاه البربر سياسة تحمل الكثير من العنصرية والابتزازات والإهانات المتكررة، حيث كانت

<sup>1</sup> - الصلابي علي، المرجع السابق- الدولة الأموية...، ص372، بتصرف

معاملة الأمويين قاسية اتجاه البربر، تصل في الكثير من الأحيان إلى العنف والتعذيب والتقتيل، كما قام الأمويين من إقصاء البربر من مجالات الانتفاع الاقتصادية والحرية في ممارسة الأنشطة الاقتصادية، غير أن المسلمين العرب كانوا يهدفون إلى دعوة البربر إلى الإسلام ونشره في إطار حركة الفتوحات الإسلامية، لكن هذا لا ينفي بتاتا وقوع تجاوزات اقتصادية قام بها قادة الفتح وجيوشهم حيث كان همهم الحصول على الغنائم، فحملة معاوية بن حديج على إفريقية، حيث أسفرت عنه غنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر.<sup>1</sup> أما أثناء حملة عقبة بن نافع فقد بلغت المغنم التي أحرزها من الكثرة درجة جعلته يوجهها إلى المشرق.<sup>2</sup> وهذا: "أبو المهاجر دينار فطبق سياسة مخالفة لسياسة عقبة بن نافع، فعمل على اكتساب البربر باللين والرفق، حيث إن أبو المهاجر لم يسعى إلى الغنيمة ولم يهتم بالمال، بل كان يرمي إلى إتمام فتح البلاد فقط."<sup>3</sup> وأثناء ولاية حسان بن النعمان، فقد عاد إلى المشرق محملاً بالأموال والجوهر والذهب المخبأة قرب الماء، وكذلك الوصائف والوصفان والجواري من بنات عظماء الروم والبربر.<sup>4</sup> أما ولاية موسى بن نصير فقد حرص على جمع أكبر قدر من المال حتى أنه حرم رجاله في بعض الأحيان من حقهم.<sup>5</sup> فدخل المغرب وقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم منها أموالا كثيرة فأصاب عدد من ولائد ووصفاء وذهبا وفضة.<sup>6</sup> وهذا ما يفسر حصول موسى بن نصير على غنائم كثيرة من الذهب والفضة، إضافة إلى الكثير من السبايا في فترة ولايته على إفريقية، فكانت أغلب هذه الغنائم تبعت إلى الخلافة الأموية في المشرق.

<sup>1</sup> - قضايا في التاريخ الإسلامي، منهج وتطبيق، محمود إسماعيل، بيروت: دار العودة، 1974م، ص 136 بتصريف.

<sup>2</sup> - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 137

<sup>3</sup> - فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ص 175

<sup>4</sup> - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 38-39

<sup>5</sup> - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 137

<sup>6</sup> - الرقيق القيرواني، المصدر السابق- تاريخ إفريقية، ص 40

هكذا فإن: "ولاية إفريقية في عهد الدولة الأموية، أصبحت بالنسبة للعرب أرض المغانم والأسلاب والسبي، أرض أوام الورق، وقناطير الذهب والسبايا الجميلات".<sup>1</sup> وتواصلت هذه السياسة الاقتصادية الاستغلالية من طرف الدولة الأموية وولاتها بالمغرب، حتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي كان حاكما عادلا، فقد حاول وضع حدًا لتلك المظالم فعاود تطبيق سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تماشيا مع الشريعة الإسلامية، ففي المغرب أسند الإمارة إلى والي تقيّ هو إسماعيل بن عبيد الله، وأمره بإسقاط الجزية عن البربر المسلمين، وتحرير من استرق من نساءهم، كما أمره بإعادة الأراضي إلى أصحابها يجنّون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم.<sup>2</sup> فقد كان هدف عمر بن عبد العزيز هو نشر الإسلام أولا قبل كل شيء، حيث يعتقد الكثير من الكتاب المعاصرين أنّ الفتح الحقيقي للمغرب، تمّ في عهده، وذلك بسبب احترامه لحقوق البربر الاقتصادية ومنحهم الحرية في ممارسة الأنشطة الاقتصادية، إلا أنّ هذه السياسة التي استحدثها عمر بن عبد العزيز في المغرب لن تعرف الاستمرارية، وبالتالي عودة الخلافة الأموية إلى سابق سيرتها الأولى.

بهذا الحدّ يمكن الاستنتاج ممّا سبق أنّ الدولة الأموية مارست سياسة اقتصادية استغلالية اتجاه البربر، حيث لم يعطي قادة الفتح الإسلامي والولاة الأمويين حقوقا اقتصادية للبربر وحرية ممارسة للأنشطة الاقتصادية، حيث اقتصرت هذه الممارسات على العرب فقط، إلا في بعض الفترات، هذا التعسف سيدفع البربر في الكثير من الأحيان بالقيام بثورات ضد الولاة الأمويين.

▪ الجانب السلوكي والإنساني إبان الفتوحات الأموية

<sup>1</sup> - تاريخ المغرب العربي، ذ.سعد زغلول، منشأة المعارف، 1979م، ج1، ص174

<sup>2</sup> - ذ.محمود إسماعيل، المرجع السابق-قضايا في التاريخ الإسلامي، ص138-139

إن الدولة الأموية باعتبار أنها الجهاز المحتضن للفتوحات الإسلامية في إفريقيا، كانت دولة عسكرية بامتياز ومما زاد من خطورة هذه الميزة أنها كانت دولة عربية أكثر منها إسلامية، مما سيُنْتَج عنها بعض التجاوزات غير الأخلاقية اتجاه البربر وزعمائهم، وهذا الطابع العنصري تميّز به بعض قادة الفتح الإسلامي الذين كانت لديهم نزعة عربية، ونلاحظ هذا الأمر لدى عقبة بن نافع، فعندما قَدِم ودان وفتحها قبض على ملكهم فجدع أذنه، فقال: لَمْ فعلت هذا بي؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك أدبا لك، إذا مسست أذنيك ذكرتته، فلم تحارب العرب.<sup>1</sup> ثم توجه عقبة إلى فزان، فلما دنى منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا... وخرج ملكهم يريد عقبة وأرسل خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعما فجعل يبصق الدم، فقال له: لَمْ فعلت هذا بي وقد آتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبا لك إذا ذكرتته لم تحارب العرب.<sup>2</sup> ثم مضى عقبة إلى قصور كوار فافتتحها كان بها ملكها فقطع أصبعه، فقال: لَمْ فعلت هذا بي؟ فقال عقبة: أدبا لك إذا نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب.<sup>3</sup> كما لا يغيب علينا، تصرّف عقبة مع كسيلة، الذي لا يخلوا من إهانة واضحة صادرة عن عنصرية جامحة، ونعلم أنّ كسيلة ثبت إسلامه منذ ولاية أبي المهاجر، وهو زعيم قومه، ورغم ذلك فقد تعمّد عقبة الإساءة إليه، بحيث أتى بغنم فأمره بذبحها وسلخها مع السالخين، فقال كسيلة: هؤلاء فتيانى وغلمايى يكفونى المؤونة، فشتمه وأمره بسلخها، ففعل.<sup>4</sup> وفي هذا السياق يمكن القول أنّ أيّ باحث موضوعي سيفسّر هذه التصرفات التي صدرت عن عقبة على أنها تجاوزات غير أخلاقية وفيها الكثير من العنصرية اتجاه البربر وزعمائهم، حيث جاءت من قائد مسلم جاء حاملا رسالة نبيلة يدعو الناس ويرغبهم ويكسبهم إلى جانب الإسلام، وإلى جانب الدولة الإسلامية الأموية. وقد اختلف

<sup>1</sup> - فتوح إفريقية والأندلس، ابن عبد الحكم، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، ص 51

<sup>2</sup> - ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 52

<sup>3</sup> - ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 53

<sup>4</sup> - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 29

أبو المهاجر دينار عن عقبة بن نافع في التعامل مع البربر فقد عمل أبو المهاجر على تقريب البربر منه ومعاملتهم بطريقة حسنة، وهذا ما نلاحظه في تعامله مع كسيلة زعيم البربر بعد أسره في معركة تلمسان، فقد عامله معاملته فيها الكثير من الرفق والاحترام، حيث كان أبو المهاجر يطمع في إسلام كسيلة فحدثه عن الإسلام وفهمه أنه دين الحق والعدل والمساواة، هذا الأمر دفع بـ كسيلة- إلى الدخول في الإسلام فأسلم على إثره الكثير من البربر، وقد نهج حسان بن النعمان نفس السياسة التي سار عليها أبو المهاجر، ويتضح هذا الأمر جليا في تعامله الحسن مع أولاد الكاهنة، فقد رحب بهم حسان وولى أكبرهم قيادة الجيش ووثق بإخلاصهم فحسن إسلامهم مما أدى إلى إسلام عد كبير من البربر.

إن اختلاف قادة الفتح الإسلامي في التعامل الأخلاقي والإنساني مع البربر، فعقبة بن نافع نهج سياسة الشدة لأنه كان يريد فرض نفوذه بقوة لنشر الإسلام، إلا أن أبو المهاجر وحسان بن النعمان قد اختلفا عنه في نهج سياسة اللين اتجاه البربر مما أدى إلى إسلام عدد كبير من البربر في فترة قيادتهم للفتح الإسلامي بإفريقيا، أما بالنسبة إذا ما تمّ استعباد واسترقاق البربر أو العفو عنهم، فإنّ مصادر التاريخ تذكر على وجود الكثير من السبايا والعبيد في فترة الدولة الأموية، حيث تشير الروايات إلى وجود أعداد ضخمة وكبيرة من السبايا والعبيد في عهد الدولة الأموية، ذلك نتيجة حركة الفتوح، قد تمكنت الغزوات الإسلامية من الوصول إلى مناطق إفريقيا والمغرب، لذلك أصبحت إفريقيا الخزّان للعبيد والنساء الجميلات من البربر، والتي كانت ترسل قسرا وتباع في مراكز الخلافة الأموية وأسواق نخاستها، وهذه الظاهرة أدخلت للدولة الأموية أموال طائلة، وفي حملة عقبة بن نافع لفتح إفريقيا أصاب نساء، لم يرى الناس في الدنيا مثلهن، فقيل أن الجارية منهن كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو نحوها<sup>1</sup>؛ وقد ذكر العديد من المستشرقين أن عقبة بن نافع في عهده أرسل عدد كبير من العبيد إلى دار الخلافة بدمشق، وقد بلغ ذلك 80 ألف، أما حسان بن النعمان، فلما قدم على عبد العزيز بن

<sup>1</sup> - الرقيق القيرواني، المصدر السابق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص 15 بتصرف.

مروان أهدى إليه مائتي جارية من خيار ما معه، ويقال أنه كان معه من السبي خمسة وثلاثين ألف رأس مما لم يدخل المشرق مثله.. فانتخب منها عبد العزيز ما أحب.<sup>1</sup> أما عن حملات موسى بن نصير في المغرب الأوسط والأقصى فقد نجحت نجاحا باهرا وكانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية كما يقال، فالكتّاب لا يتكلمون إلا عن أعداد خيالية من السبي والأشترى تصل في بعض المدن إلى 100 ألف رأس وأكثر.<sup>2</sup> وقد تميزت فترة موسى بن نصير بالسبي الكثير مقارنة مع أوساط قادة الفتح في إفريقيا وآسيا.

وفي هذا السياق يمكن الخروج بخلاصة مفادها، أنّ بلوغ الذروة في السبايا والعبيد على عهد الدولة الأموية، يرجع إلى سياسة قادة الفتح الذين عملوا للحصول على الكثير من النساء الجميلات والعبيد لبيعهن في الأسواق في مراكز الخلافة، دون مراعاة ما حثهم على الإسلام حيث أمر الإسلام بعد أيّ فتحٍ عُرض على الشعوب المنهزمة إما الجزية أو الإسلام، إلا أنّ فترة الدولة الأموية لم يحترم قادة الفتح الإسلامي في إفريقيا هذه الخاصية، بخلاف فترة فتوحات الخلافة الراشدة، حيث كانت مؤسسة الدعوة إلى الإسلام، وكان الخلفاء يراقبون عن كثب سير الفتوحات مع احترام السكان وأخلاقيات المطالبة بالجزية ومراعاة أحوال الناس، فقد ظهر تطبيق هذا الأمر في عهد الدولة الأموية في فترة حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذي قام بتحرير العبيد وعمّ استرقاق النساء، غير أنّ بعد خلافته عاد الحال كما كان.

○ تصرفات المسلمين الفاتحين في عهد الدولة الأموية مع الأنظمة المنهزمة في آسيا

▪ رصد أهم التصرفات على المستوى الديني

عمل قادة الفتح الإسلامي والمسلمين في آسيا على تطهير شعوبها من عبادة الأصنام والأوثان، ودعوتهم إلى الإسلام، بعد كل فتح، حيث كانت بآسيا العديد من الأديان

<sup>1</sup> - الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 36-37 بتصرف.

<sup>2</sup> - الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 241

الوثنية، لذا سهر المسلمين على نشر الإسلام مع احترام للعقائد الدينية للشعوب الآسيوية، حيث كانت تفرض الجزية عنهم، وهذا الأمر يعكس مدى التزام المسلمين بأوامر الله سبحانه وتعالى، يقول البلاذري: لم يكن المجاهدون المسلمون يحركهم اشتهاؤ الدم، أو الظفر بالأرض أو جمع الكنوز والغنائم، لقد خرج المجاهد المسلم يملئه الشوق الجارف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.<sup>1</sup>؛ حيث عمل المسلمون وقادة الفتح على تطهير آسيا من عبادة الأوثان، ونشر الإسلام، لكن هذا الأمر لم يمنع وجود بعض التجاوزات اتجاه الحرية العقديّة للشعوب الآسيوية قام بها قادة الفتح الإسلامي. وعند فتح المسلمين بقيادة قتيبة بن مسلم لمدينة سمرقند، صالحهم قتيبة على أن: تهدم بيوت النيران وتزال الأصنام.<sup>2</sup>؛ وهذا الأمر يدلّ على عدم احترام المسلمين لمعتقدات أهل سمرقند، لكن كان هدف المسلمين تطهير مدينة سمرقند من الأصنام ومن عبادة الأوثان، دعوة الصغديين إلى الإسلام. والذي يفسر هذا أنّ بعد دخول المسلمين سمرقند، لم يعترض أيّ مسلم للصغديين، وهذا الأمر دفع الكثير من أهل سمرقند للدخول في الإسلام، أما من بقي على معتقده فُرضت عليه الجزية، مسألة أخرى تؤكد على احترام المسلمين للمعتقدات التعبدية. هو أنه لما تقدم المسلمون إلى -السند- لإتمام فتحها وصلوا إلى مدينة -الراور- فحوصرت ثم فتحها المسلمون صلحا على شرطين، هما: عدم قتلهم وعدم تهديم بيوتهم التي يتعبدون فيها.<sup>3</sup>؛ هذان الشرطان يُقدّمان صورة بالغة النصاعة في تأمين معتقدات أصحاب البلاد المفتوحة، حيث كان شغل المسلمين الشاغل هو بناء المساجد وتمكينهم من إبلاغ دعوتهم إلى الله من غير قهر الآخرين أو محو هوياتهم، وإنّ ترك المسلمين لهذه المعابد التي يقول عنها البلاذري: إنها كثناس النصراري واليهود وبيوت النار، يدلّ على أنّ هذه الأمة تجاهد وهي تحترم معتقدات الآخرين ولو كان معتقدهم عبادة الأصنام والأوثان، أمرٌ أجيزَ هو أنّ المسلمين كانوا يتحركون بأخلاق

<sup>1</sup> - أبو الحسن البلاذري، المصدر السابق- فتوح البلدان، ص412

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص285

<sup>3</sup> - أبو الحسن البلاذري، المصدر السابق- فتوح البلدان، ص412

الإسلام من رحمة وعفة وأخلاق رفيعة، والدليل على ذلك هو احترام قادة الفتح الإسلامي في آسيا للمعتقدات التعبدية لشعوبها، خاصة قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي، قد عملا على نشر الإسلام، عن طريق احترام حرية شعوب آسيا في اختيار الدين، وعدم المسّ بمعابدهم وكنائسهم، الأمر الذي أدى إلى دخول شعوب آسيا إلى الإسلام طوعا لا إكراها..

#### ▪ تصرفات اجتماعية اقتصادية

من المعلوم أنّ ما ميّز فتوحات الدولة الأموية في آسيا هو الحصول على الكثير من الغنائم والثروات، وهذا الأمر أشارت إليه العديد من الدراسات الغربية، التي تقول بأن المسلمين كان هدفهم الحصول على الغنائم والأراضي الصالحة للزراعة من فتوحاتهم، ما يفسر هذا الاستغلال الاقتصادي وهو نهج قادة الفتح الإسلامي بعد أيّ فتح، سياسة مصادرة الغنائم وحياسة الأراضي الصالحة للزراعة. وهذا ما نلاحظه عندما تمكّن المسلمون من فتح مدينة بيكند، أصابوا فيها من الغنائم والسلاح وأنية الذهب والفضة ما لا يحصى ولا أصابوا بخرسان مثله.<sup>1</sup> وكذلك لما فتح المسلمون مدينة سمرقند بقيادة قتيبة بن مسلم، حيث تمكنوا من الحصول على غنائم كثيرة وصلت إلى خمسين ألف مثقال من الذهب.<sup>2</sup> كما حصل المسلمون على غنائم ضخمة جراء فتح بلاد السند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، وهذا الأمر نظير عندما: "فتح المسلمون لمدينة الملتان، حيث أصابوا ذهباً كثيراً فجمع في بيت طوله عشرة أذرع يلقي إليه من كومة في وسطه، فسميت الملتان فرج بيت الذهب أو الفرج الثغر."<sup>3</sup> لا شك أنّ المسلمين قد حصلوا على غنائم كثيرة من الذهب والفضة والحري، لكن هذا الأمر لم يمنع قادة الفتح الإسلامي، خاصة قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي، من منح حقوق اقتصادية لشعوب

<sup>1</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص 245

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص 251

<sup>3</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص 275

آسيا، حيث سمح لهم بممارسة التجارة والأنشطة الاقتصادية بالإضافة إلى المحافظة على أراضيهم الزراعية، وقد اختلف المسلمون في آسيا عن قادة الفتح الإسلامي في إفريقيا، حيث عمل المسلمون في إفريقيا على السيطرة على الغنائم والثروات والأراضي الصالحة للزراعة، لكن في آسيا اختلف الأمر، لأنّ المسلمين عملوا على تطبيق الشريعة الإسلامية ونشر الإسلام، هذا ما يظهر جليا في دخول الشعوب الآسيوية بشكل سريع في الإسلام مقارنة مع البربر في إفريقيا.

#### ▪ التعامل الأموي على المستوى السلوكي والإنساني

لقد تميزت الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي في آسيا، بحسن معاملة المسلمين للشعوب الآسيوية، حيث عمل قادة الفتح الإسلامي على تطبيق الشريعة الإسلامية، فكان تعاملهم فيه الكثير من الرفق والسلوك الجيد اتجاه السكان بعد أيّ فتح، إلا أنّ هذا الأمر لم يمنع من وجود بعض التجاوزات غير إنسانية، قام بها بعض المسلمين دون مراعاة ما أمرهم به الإسلام، وهذا ما نلاحظه عند فتح المسلمين لمدينة بيكند، فلما دخلها عنوة قتل من كان بها من المقاتلة، وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور، هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة قيمتها ألف ألف. <sup>1</sup>؛ غير أنّ قتيبة أمر بقتله بعد استشارته مع المسلمين، وكذلك هذا التعامل ظهر أيضا بعد فتح مدينة سمرقند، حيث تذكر المصادر العربية والإسلامية، أنّ قتيبة دخل المدينة غدرا دون أن يخير أهلها بين الإسلام أو الجزية... فلما علم أهل سمرقند بأن هذا الأمر مخالف للإسلام، أرسلوا وفدا إلى دمشق ليشتكوا إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقابلوه وأخبروه بما حصل، فاستجاب لطلبهم، وكتب إلى عامله في خراسان أن ينصبّ لهم قاضيا للنظر في ما قالوه، فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي. <sup>2</sup>؛ ورأى أنّ الحق مع أهل سمرقند، وقضى بإخراج المسلمين، على أن يؤذّنهم

<sup>1</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص 244

<sup>2</sup> - ابن الجريير الطبري، المصدر السابق-تاريخ الأمم...، ص 568

القائد بعد ذلك وفق المبادئ الإسلامية<sup>1</sup>؛ وما ظن أهل سمرقند أنّ تلك الكلمات ستفعل فعلها، فما غربت شمس ذاك اليوم ورجل من الجيش الإسلامي في أرض سمرقند، خرج الجيش كله ودعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال<sup>2</sup>. فلما رأى أهل سمرقند من عدالة تنفيذها الدولة الإسلامي، وكذلك أنّ هذه الأمة تحكمها الرحمة، فدخل أغلبهم في الإسلام، وفرضت الجزية على الباقين، رغم هذه التجاوزات التي قام بها المسلمين إلا أنّ المسلمين وقادة الفتح، كان هدفهم تطبيق الشريعة الإسلامية، بعد أي دخول لمدينة وفتحها، وهذا ما نراه في فتح المسلمين لمدينة بيكنند، حيث دخل إليها المسلمون، دون

قتال، وقام قتيبة بإعادة طغشاد بن خاتون على عرشها<sup>3</sup>؛ ويبدل كذلك على هذا التعامل الأخلاقي والإنساني ومعاملته الحسنة، هو تقيّد قادة الفتح بتطبيق شروط الصلح الذي صالح عليه مع الشعوب المنهزمة، وهذا الأمر يتبيّن جليا في فتح بلاد السند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، الذي فتح معظم مناطقها صلحا، فعمل على تنفيذ واحترام شروط الصلح، هذا الأمر كان له تأثير بدخول بلاد السند إلى الإسلام، وكذلك يظهر هذا الأمر عند غزو المسلمين للصين، حيث قام الإمبراطور بالتفاوض مع المسلمين، فنتج عنه دفع الجزية مقابل خروج المسلمين من الصين... أما بخصوص حصول المسلمين على العبيد والسبايا في العصر الأموي، فإنّ المسلمون حصلوا على أعداد كبيرة من السبايا، وهذا ما نلاحظه لما غزا قتيبة بن مسلم فرغانة، وعاد منها إلى خوارزم سنة 93هـ فبلغ السبي مائة ألف رجل وليس في ذكورهم ولا إناثهم كهل<sup>4</sup>؛ أما لما غزا المسلمين

<sup>1</sup> - ابن الجريير الطبري، المصدر السابق-تاريخ الأمم...، ص 578

<sup>2</sup> - أبو الحسن البلاذري، المصدر السابق- فتوح البلدان، ص 407

<sup>3</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص 245

<sup>4</sup> - التاريخ، اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت: شركة الأعلمي للمطبوعات، 2010م، ط 1، ج 2، ص 287

كاشغر فسبوا منها سبياً<sup>1</sup>؛ وسبي المسلمون من قهستان سبياً كثيراً<sup>2</sup>؛ أما لما غزا محمد بن القاسم الثقفي بلاد الهند، وقتل أهل الملتان ودخلوا المدينة فقتل المقاتلة وسبى الذرية وكانوا ستة آلاف<sup>3</sup>؛ كما تحصّل المسلمون على سبأيا كُثُر لما غزوا بلاد السند وأرض الصين وبلاد كثيرة سنة 105هـ فبلغ سبّيه من هذه الحروب حوالي ستمائة ألف وخمسين ألف رأس<sup>4</sup>؛ وكانت تُوجّه هذه السبأيا والعبيد إلى مركز الخلافة في دمشق، وكانت تُقسّم بين المشاركين في القتال ولبيت المال.

ويلاحظ أنّ المسلمين في فتوحاتهم في آسيا، لم يتحصلوا على حصص الأسد من السبأيا والعبيد، مقارنة بما تحصّل عليه المسلمين في إفريقيا، لأنّ قادة الفتح الإسلامي في آسيا كانوا يسهرون على تطبيق الأحكام الشرعية بخصوص الرقيق والعبيد، وذلك وفق ما أمر به الإسلام، حيث كان هدفهم هو دعوة الشعوب الآسيوية إلى الإسلام ونشره في مناطقها.

#### الخاتمة:

لقد شكّل تعامل المسلمين مع الأنظمة المنهزمة إبان الفتوحات الإسلامية فترة الدولة الأموية، حيث تناقض في أوساط الدراسات التاريخية فقد ذهب العديد من الكتاب المستشرقين والعرب المعاصرين، إلى أنّ تعامل الدولة الأموية كان فيه الكثير من القسوة والقوة، باعتبارهم أنّ المحرك الأساس لفتوحاتهم هو العامل الاقتصادي والحصول على الثروات الموجودة في إفريقيا وآسيا، وفي حين نجد اتجاه آخر يعتبر أنّ تعاملهم كان فيه احترام وحقوق وحرّيات لهذه الأنظمة بعد فتحها، وكان تعامل المسلمين بطريقة حسنة فيها الكثير من المسامحة، كما أنّ العامل الأساس لفتوحاتهم هو الدعوة ونشر الإسلام،

<sup>1</sup> - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 288

<sup>2</sup> - ابن الأثير الجزري، المرجع السابق، ص 242

<sup>3</sup> - أبو الحسن البلاذري، المصدر السابق- فتوح البلدان، ص 247

<sup>4</sup> - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 317

إلا أنه قد تميزت فترة فتوحات الدولة الأموية بوجود العديد من التجاوزات التي قام بها المسلمون بقيادات الفتح الاسلامي اتجاه الشعوب المهزومة في إفريقيا وآسيا، وذلك على كافة الأصعدة، من حيث عدم احترام معتقداتهم وحرية ممارسة الأنشطة الاقتصادية التي كانت جكرا على العرب، كما تمّ استعباد الشعوب المهزومة وبيعهم في أسواق الدولة الأموية، وهذا ما يفسر حصول الدولة الأموية على غنائم وثروات كثيرة نتيجة فتوحاتهم، بالإضافة إلى السبايا من النساء الجميلات والعبيد من الرجال، وهذا الأمر يلاحظ أيضا في إفريقيا حيث كان تعامل المسلمين فيه الكثير من القوة وعدم احترام البربر في جميع النواحي، بخلاف المسلمين في آسيا حيث كان تعاملهم فيه كثير من الاحترام والتقيّد بأحكام الشريعة الإسلامية في ذلك الأمر. لكن يبقى القول واضحا أنّ تعامل المسلمين خلال فترة فتوحات الدولة الأموية لم يتقيد المسلمين فيه بالشريعة الإسلامية، مقارنة مع فترة فتوحات الخلافة الراشدة، حيث كان هدف المسلمين في تلك الفترة هو نشر الإسلام فوق أي اعتبار، كما أن تعاملهم اتجاه الأنظمة المهزومة كان يتم وفق الشريعة الإسلامية، ورغم هذا التجاوز والتعامل الذي ميّز فترة الدولة الأموية، إلا أنّ هدف المسلمين كان نشر الإسلام، هذا ما يفسر دخول البربر إلى الإسلام، والشعوب الآسيوية كذلك..

#### قائمة المصادر والمراجع:

1. الكامل في التاريخ، بن الأثير الجزري، تحقيق: أبو فداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت 1987م، ط1، ج3-4 ؛
2. البيان المغرب، بن عذارى المراكشي، تحقيق: بشار عواد معروف، 2013م، ط1، ج1 ؛
3. فتوح إفريقيا والأندلس، بن عبد الحكم، تحقيق: عبد أنيس الطباع ؛
4. فتوح البلدان، أبو الحسن البلاذري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1983م ؛

5. التاريخ، اليعقوبي، تحقيق:عبد الأمير مهنا، بيروت:شركة الأعلمي للمطبوعات، 2010م، ط1، ج2 ؛
6. تاريخ الأمم والملوك، بن الجير الطبري، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت:روائع التراث العربي، ط2، ج6، 1967م ؛
7. الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، الصلابي علي، دار المعرفة، 2008م، ط2، ج1-2 ؛
8. فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية ؛
9. قضايا في التاريخ الإسلامي منج وتطبيق، محمود إسماعيل، بيروت:دار العودة، 1974م ؛
10. قادة الفتح الإسلامي بالمغرب العربي، محمود شيت خطاب، 1984م، ط2، ج1 ؛
11. تاريخ المغرب العربي سعد زغلول، منشأة المعارف، 1979م، ج1 ؛